العرب
الثلاثاء 2020/01/07
السنة 42 العدد 11579

هل يتحول مقتل سليماني إلى ورقة لإنقاذ النظام الإيراني

دفع لتوظيف شعبية ثعلب طهران للخروج من مأزق الاضطرابات الداخلية

بعيدا عمّا ذهبت إليه مختلف التقارير الدولية التي ركزت منذ مقتل قاسم سليماني قائد فيق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني على تداعيات هذه الخطوة الأميركية بشأن مصير الشرق الأوسط المهدد بحروب عسكرية مفتوحة، فإن النظام الإيراني بات يركز كل جهوده لاغتنام فرصة اغتيال سليماني لإعادة ترتيب أوراقه الداخلية خاصة في ظل تواصل وجود المهدات لاندلاع احتجاجات جديدة تطالب بإسقاط النظام وترفع شعارات تدعو علي خامنئي إلى الرحيل.

خيبة قد تتحول إلى هدية

باريس – حوّل إقدام القوات الأميركية على قتل قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني قاسم سليماني في العراق مسارات الحديث من الخوض في الأزمة السياسية الداخلية في إيران إلى التركز على تداعيات هذا الحدث البارز على مصير منطقة الشرق الأوسط.

وفيما ركزت جل التقارير الدولية على استشراف ما سيحصل من تطورات في الشرق الأوسط قد تصل حد بداية الحرب العسكرية المفتوحة بين واشنطن وطهران، فإن الكثير من المتابعين الآخرين ذهبوا لتناول عملية قتل سليماني من زاوية كيف سيوظف النظام الإيراني هذا التطور الجديد لمحاولة إنقاذ نفسه من الانهيار.

قبل مقتل قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني قاسم سليماني بضربة أميركية استهدفته في مطار بغداد الدولي، ركز المراقبون في قراءاتهم للشأن الداخلي الإيراني على محاولة فهم الأوراق الجديدة التي سيوظفها النظام لإخماد أصوات الشوارع الإيرانية المحتجة ضده وضد رموزه وقادته.

> النظام الإيراني يدفع إلى توظيف رمزية ما يحظى به سليماني للخروج من مأزق الاضطرابات والاحتجاجات الداخلية

لكن بعد مقتل سليماني يبدو أن الأمر قد تغيّر، حيث شكلت الحادثة منطلقا هاما للجمهورية الإسلامية والمحافظين في البلاد للاستفادة من المشهد على الصعيد الداخلي، وذلك بعد شهرين من تظاهرات قمعتها السلطات بعنف تخللتها انتقادات للسياسة الخارجية.

وتدفع قيادات النظام الإيراني وفي مقدمتها آية الله علي خامنئي إلى ضرورة الاستفادة من رمزية الحدث لدى الإيرانيين، وخاصة مما يحظى به سليماني من شعبية للخروج من مأزق الاضطرابات الداخلية التي دشنتها الاحتجاجات العارمة في الأشهر الأخيرة من عام 2019 والتي طالبت بإسقاط النظام.

وأثار اغتيال مهندس العمليات الإيرانية في الخارج في بغداد بطائرة مسيرة أميركية ليل الخميس – الجمعة، موجة من التأثر في البلاد لن تتوانى السلطات في إيران عن استغلالها.

وبالنسبة للدبلوماسي السابق والمحلل الأميركي آرون ميلر، "فإن قتل سليماني الذي يساوي أميركياً رئيس وكالة الاستخبارات المركزية (سي.آي.إيه) ومدير قيادة العمليات الخاصة مجتمعين، يعني أن الولايات المتحدة قضت على ثاني أقوى شخصية في إيران".

ويتيح مقتل سليماني الذي وصفه المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية آية الله علي خامنئي بـ"الشهيد الحي"، لطهران أن تستثمر اسمه. لكن السفير الفرنسي السابق في طهران فرنسوا نيكولو يرى أن "هناك فرصة" حاليا أمام السلطات في إيران "لتحويل الضربات الأميركية عن مسارها. ليس لوقت طويل، لكن مشاعر التأثر الشعبي ستبقى"، مضيفاً أن سليماني "كان يمثل الصورة الجميلة للجندي في الخيال الإيراني".

ويعتبر العديد من الإيرانيين سليماني بمثابة بطل يعتمدون عليه لتجنيب إيران الوضع الذي عانى منه العراق وسوريا أو أفغانستان.

في أكتوبر، أكد استطلاع للمعهد الأميركي للدراسات الدولية والأمنية في ميريلاند أن الجنرال سليماني كان بالفعل من أكثر الشخصيات السياسية المحبوبة في إيران، إذ حصل على تأييد ثمانية أشخاص من كل عشرة إيرانيين شملهم الاستطلاع.

غضب عميق

قد يدفع مقتل الجنرال سليماني طهران أيضاً الى التقوقع على ذاتها في وضع دفاعي. ورأى مسؤول الشؤون الإيرانية في مجموعة الأزمات الدولية علي فايز في تغريدة على تويتر أنه "من شبه المضمون أن يصبح البرلمان الإيراني بيد العناصر الأكثر تشدداً في إيران" بعد الانتخابات التشريعية في فبراير.

وشملت تظاهرات اندلعت في 15 نوفمبر في البلاد، بعد الإعلان عن زيادة كبيرة في أسعار البنزين في ظل أزمة اقتصادية خانقة، المئات من المدن الإيرانية.

وبعد أيام، أعلنت السلطات نجاحها في إعادة الهدوء إلى البلاد، لكن دون أن تورد حصيلة لأعداد الضحايا، بينما أشارت منظمة العفو الدولية إلى مقتل 300 شخص. وتم توقيف الآلاف.

تحت ضغط العقوبات الإيرانية، تدهورت قيمة العملة المحلية الريال، كما ارتفع التضخم. وبحسب التقديرات الأخيرة لصندوق النقد الدولي، انخفض الناتج المحلي الإجمالي في إيران عام 2019 بنسبة 9.5 بالمئة.

وقدّم الرئيس الإيراني حسن روحاني في ديسمبر "ميزانية التصدي" للعقوبات الأميركية.

وتعتبر المحللة أريان طبطبائي من معهد "راند" الأميركي للأبحاث في أن "الشكاوى الشعبية التي قادت إلى التظاهرات لا زالت قائمة. ويمكن للنظام أن يستغل (موت الجنرال) ليواصل قمع المعارضة"، بحجة أن المعارضين ينفذون الأجندة الأميركية.

وترى المحللة أنه رغم كل شيء كانت لسليماني صورتان متناقضتان: صورة البطل المدافع عن البلاد "السائدة في أوساط الشباب المؤيد للنظام"، وصورة أحد كوادر "المنظمة المسؤولة عن القمع وارتكاب انتهاكات" في نظر آخرين. خلال تظاهرات عام 2017 و2018، وكذلك تظاهرات ديسمبر، ندد البعض بالثمن الداخلي الذي يدفع في إيران مقابل الطموحات الإقليمية للنظام التي جسدها سليماني أكثر من غيره.

ويلفت آرون ميلر إلى أن "الملايين من الإيرانيين يريدون المزيد من الروابط مع العالم الخارجي، والمزيد من الازدهار الاقتصادي، والمزيد من الحرية".

صفحة جديدة من التوظيف

لكن المتشددين في النظام الإيراني اختاروا حتى الآن عدم الإصغاء لتلك التطلعات. إلا أن اغتيال سليماني يضعف هذا الخط سياسياً على الأقل لجهة أن طهران لم تتوقع حدوث ما حدث.

قبل يومين من اغتيال سليماني، هاجم متظاهرون عراقيون مؤيدون لإيران سفارة الولايات المتحدة في بغداد، منددين بضربات جوية أميركية ضد كتائب حزب الله العراقي، وهو فصيل في الحشد الشعبي موال لإيران، أسفرت عن مقتل 25 شخصاً.

وكتب حينها علي خامنئي على تويتر "لا يمكنكم أن تفعلوا شيئاً"، في إشارة إلى عجز الأميركيين إزاء إيران. ويعتبر فرنسوا نيكولو أن هذا الكلام يعكس "سوء تقدير" من جانب الإيرانيين، لأن "الولايات المتحدة وجدت طريقة للرد".

ويحذّر الخبراء من أن تكرّر إيران الهفوة نفسها. ويرى المحلل أليكس فانتا من "معهد الشرق الأوسط في واشنطن" أنه "إذا كان على إيران الاختيار بين إنقاذ النظام وتوسيع نفوذها في المنطقة"، فهي ستختار الأول. ويضيف أن موت سليماني "لا يدمر قدرة إيران على التوسع. لكن على النظام الإيراني، خلال دراسته كيفية الرد على واشنطن، أن يقدّر العواقب كافة".

من قتل سليماني قادر على قتل كل الرؤوس

الولايات المتحدة باغتت إيران وقلبت قواعد لعبة عمرها عقود

محمد قواص
صحافي وكاتب سياسي لبناني

لندن – تراجعت منابر إيران خلال أقل من 24 ساعة عن التهديد برد مزلزل ساحق انتقاما لمقتل الجنرال قاسم سليماني، وباتت تهمس برد "مدروس" قد يجري الاتفاق حوله بالرعاية المعلنة للوسيط السويسري.

وفيما تهدد وستهدد الميليشيات التابعة لإيران في العراق ولبنان واليمن بالرد الموعود، فإن الرئيس الأميركي دونالد ترامب عاجل بالإعلان عن خطط واشنطن برد ساحق داخل إيران نفسها (52 هدفا مرصودا). وعليه فإن واشنطن تستعيد برشاقة زمام المبادرة، فيما تبدو طهران متخبطة مرتبكة، تستعين بترسانتها اللغوية، علّها تعوّض ما نال من هيبتها خلال الساعات الماضية.

تفوّقت الولايات المتحدة على العالم في ما تمتلكه من قوة اقتصادية هائلة، تقلق دولة عظمى كالصين وتجمعا دولي كالاتحاد الأوروبي، حين تلوّح بعقوباتها الاقتصادية. ذهبت الصين إلى اتفاق تجاري مع العملاق الاقتصادي الأميركي، فيما دول حلف شمال الأطلسي تذعن لمطالب ترامب برفع نسب مساهماتها في ميزانية الحلف العسكري الغربي، وتسعى دول أوروبية لإيجاد أرضية ترفع عن منتجاتها رسوم ترامب الجمركية الصاعقة.

لم يكن باستطاعة إيران أن تواجه العقوبات الأميركية المفروضة عليها. انهارت المكابرة، وبدأت كافة منابر النظام في طهران تعترف بأن العقوبات القاسية تخنق البلد. بدا أن طهران تخسر في هذه الساحة وبدا أنها تبحث للرد والدفاع في ساحات أخرى.

عملت إيران على استجداء مواجهة عسكرية ما مع الولايات المتحدة. اعتقدت أن إسقاط طائرة مسيّرة أميركية من أحدث طراز في العالم ومن أغلاها ثمنا بصاروخ بخس فوق مياه الخليج (يونيو الماضي)، سيستدرج ردا أميركيا يتيح لإيران الاستمتاع بنعمة الأزمة العسكرية مع الدولة الأكبر.

كان الهدف هو تحويل السجال من جدل حول برنامجها النووي وبرنامجها للصواريخ الباليستية ونفوذها "المزعزع للاستقرار في المنطقة"، وفق التعبير الأميركي الغربي، إلى انهماك دولي في كيفية إنهاء المواجهة العسكرية الثنائية على نحو يرفع إيران إلى مستوى الندية مع الولايات المتحدة، وبالتالي الذهاب إلى طاولة المفاوضين كمقاتلين يبحثون وقفا لإطلاق النار.

حاولت إيران تحقيق الأمر في الأشهر الأخيرة من خلال هجمات متعددة قامت بها ميليشيات عراقية موالية لطهران ضد القواعد الأميركية في العراق دون أن تحظى طهران بالمواجهة الأميركية الإيرانية الموعودة. بدا أن أذرعها في سوريا ولبنان مكبّلة بقرار دولي عام (تشارك به روسيا) يتيح لإسرائيل التعامل بحزم وحسم مع أي أخطار إيرانية تظهر هناك.

ويجوز القول إن طهران كانت تسلك منهجا صحيحا متكئة به على قواعد لعبة اعتادت عليها خلال العقود الماضية.

منذ أزمة الدبلوماسيين الرهائن في السفارة الأميركية في طهران، مرورا بخطف الرهائن وتفجير ثكنة المارينز في بيروت، انتهاء بتمدد النفوذ الإيراني في ميادين المنطقة، كانت إيران تلاحظ بتلذذ سلوكاً أميركيا يتراوح بين الانسحاب والتراجع والصمت البناء. حتى أن الولايات المتحدة التي لطالما وُصفت بـ"الشيطان الأكبر" في أدبيات "الثورة" الإيرانية، سعت في عهد الرئيس السابق باراك أوباما إلى عقد صفقة الاتفاق النووي مع إيران، والتي تشكل في خفاياها تسليماً بقدر جمهورية الولي الفقيه، وتحضّر لشراكة أميركية إيرانية لمّح إليها أوباما نفسه.

ليس ذنب قاسم سليماني أنه كان واثقا بالثوابت الأميركية التي تربى عليها منذ أن قامت الجمهورية الإسلامية عام 1979. الرجل كان يتحرك بكل حرية يرسم خرائط الصراع في اليمن وسوريا والعراق ولبنان دون أي اعتراض من واشنطن. كان أمر الصمت الأميركي يشبه الرعاية الكاملة للتمدد الإيراني في كل المنطقة.

ولطالما قيل إن التواطؤ الأميركي الإيراني بات أكبر وأكثر صلابة منذ أن أفتى منظّرو المحافظين الجدد بأن السنّة، بعناوينهم المتعددة، باتوا إثر اعتداءات 11 سبتمبر منتجين للعداء الدائم للولايات المتحدة، فيما أن الشيعة، بعنوانهم الوحيد في إيران، هم حلفاء. سقط نظاما العراق وأفغانستان بالتعاون الكامل مع إيران، وهيمنت طهران على بغداد بتواطؤ كامل مع واشنطن.

بدا أن الولايات المتحدة أنهت "التعاقد" مع إيران. تغيّر الزمن وبات متجاوزا لحضور سليماني ومهماته. صار العالم بأجمعه يريد تجاوز "الاستثناء" الإيراني، وبالتالي تجاوز واقعة سليماني وميليشياته. يكفي تأمل مواقف الصين وروسيا، المفترض أنهما حليفان لإيران، كما تأمل موقف أوروبا، المفترض أنها متعاونة مع إيران، لنفهم أن مقتل سليماني هو قرار دولي نفذته مسيّرات أميركية.

نعم سيكون رد إيران مزلزلاً. لكن ذلك الرد سيكون مزلزلا بالنسبة لكل الحالة الإيرانية التي تمدّدت في المنطقة. ستذهب إيران إلى طاولة المفاوضات التي يمعن ترامب في مدّها بعد اغتيال سليماني. لا تملك إيران، بعد رفع الرعاية الأميركية الدولية لتمدّدها، إلا الذهاب مهرولة لعقد اتفاق مع إدارة ترامب، بالذات، صونا لنظام بدا أن تصفية سليماني تمثل أعراض تهديد لبقائه.

كانت إيران تعوّل على عامل الوقت على المرشح دونالد ترامب يفشل في الانتخابات الرئاسية المقبلة لصالح منافس ديمقراطي يعيد إحياء إرث أوباما و"حنانه" تجاه إيران. كانت إيران تهدد ترامب المرشح بخيار عسكري لطالما وعد ناخبيه بتجنبه. بيد أنه وفي ليلة اغتيال سليماني، بدا أن واشنطن هي التي تستدرج طهران للحرب، وبدا أن ترامب المرشح بات يعتبر أن معركته مع إيران هي حصانه الرابح داخل حملته الانتخابية.

ضربة تنهي التعاقد الأميركي الإيراني

> سليماني تحرك بحرية، رسم خرائط الصراع في اليمن وسوريا والعراق ولبنان دون اعتراض من واشنطن

شيء ما حصل في واشنطن لم يعلمه سليماني فاجأ النظام، بحرسه ومحافظيه ومعتدليه في طهران.هو انهيار إيراني بامتياز. ولى عصر الثورة الإيرانية. من يقتل سليماني يملك أن يقتل كافة الرؤوس التي كانت تعمل تحت إمرته في كل المنطقة. ومن يقتل أكثر الجنرالات قربا من الولي الفقيه، يبلغ طهران بأن ما زعمته واشنطن من عدم وجود خطط لإسقاط النظام قد يصبح متقادما، وأن هيبة الولايات المتحدة في صراعها الطويل الأمد مع الأخطار الاستراتيجية الكبرى، لاسيما تلك التي تمثلها الصين مثلا، يستدعي إزاحة بيدق عن رقعة اللعب الكبرى.